

محمد عبد الله المحرجي | *Mohammed AL-mahjari

الأسئلة والتحولات من عصر العقل إلى ما بعد الحداثة

Questions and Transformations from the Age of Reason to Postmodernism

ملخص: تهدف الدراسة إلى استقراء التحولات من عصر العقل إلى ما بعد الحداثة، وتحليلها في أفق الأسئلة التي أسهمت في تشكيلها، انطلاقاً من فرضية الارتباط الوثيق بين تخليق الأسئلة التأسيسية والتحولات. وقد رصدت الدراسة تلك التحولات، باستقراء الأسئلة التأسيسية وأثارها في شكل يراعي التحقيق والخطية الزمنية، من عصر العقل إلى ما بعد الحداثة. وتمثلت الأسئلة التأسيسية بثلاثة أسئلة مركبة هي: سؤال المنهج الذي أسس عصر العقل، سؤال التنوير الذي أسس الحداثة، سؤال القيمة والجدوى الذي أسس جذور ما بعد الحداثة. قامت الدراسة على مقاربة بينية؛ بين الفكر الفلسفى والفكر الأدبى، في القرنين التاسع عشر والعشرين.

كلمات مفتاحية: التحولات، عصر العقل، سؤال المنهج، سؤال التنوير، سؤال القيمة والجدوى.

Abstract: This study explores transformations that occurred from the age of reason to postmodernism. It conducts an analysis of these transformations in light of questions that contributed to their formation, based on the hypothesis of a close connection between the synthesis of foundational questions and transformations. The study observes these transformations by extrapolating the foundational questions and their effects, taking into account temporal periodization from the age of reason to the postmodern period. These foundational questions are threefold: Through what method was the Age of Reason established? How did enlightenment establish modernity? And how did the questions of value and advantage establish postmodernism? The study is based on an interdisciplinary approach between philosophical and literary thought in the nineteenth and twentieth centuries.

Keywords: Transformations, The Age of Reason, Method, Enlightenment, Value and Advantage.

* أستاذ الأدب والنقد المساعد، قسم اللغة العربية، كلية الآداب والعلوم، جامعة قطر.

Associate Professor of Literature and Criticism, Department of Arabic Language, College of Arts and Sciences Qatar University.

malmahgari@qu.edu.qa

مقدمة: قلق الأسئلة: الحالة الغربية من العقلانية وصناعة الوعي إلى ما بعد الحداثة وتقويض اليقين



تُعدُّ الأسئلة سبباً في تأسُّس الإدراك الإنساني منذ الأزل، وتأسُّس الوعي بالعلاقات، ونشوء الفلسفة والفلسف. تتولى الأحداث فتشكل الظاهر، ويتعقد الموقف، وتشابك العلاقات، ويترتب الأثر، ليأتي بعد ذلك دور التأمل وقلق الأسئلة إثر المأساة والحيرة والألم. لم يحدث في الواقع، لا بالضرورة ولا بالاحتمال، وجود الإشكالية وجود مبحثها الأنطولوجي في سياق زمني محايث؛ ذلك أنه مع كل حقبة نقدية في الفكر كان العالم يتقلَّل إلى تموضع جديد يقتضي تموضع الفكر النقيدي في شكل تعاقبي، مرجعه نواتج المشكلة وأثارها، ووسيلته التأمل في المآلات وعواقبها. وكلما أنتَج الفكر الإنساني رؤية نقدية جديدة يقارب بها منطق الواقع بالتحليل، يكون العالم قد انتقل إلى تموضع جديد قائم على عوامل تحولاته الاجتماعية والمفاهيمية واحتياجاته النفسية والعملية. ومع كل واقع جديد تنشأ التصورات المختلفة للوجود، وعنها تنشأ مشكلات مستجدة على مستوى الواقع وعلى مستوى الفكر معًا، وعبرهما تتحَّل التفاوتات⁽¹⁾، ويتحَّل قلق الأسئلة الوجودي في كل مرة وعلى الدوام. وباستقراء الواقع تتجلَّ صورة المزاوجة بين قلق الأسئلة في إشكالها الكلية وتموضع إجاباتها بين العقلانية والوعي مرَّةً وعدمية والوهم مرَّةً أخرى. يمكننا هنا افتراض مَوْضِعَة العدمية في مقابل العقلانية، بوصفها آخر حدًّا المقابل، وبينهما تقع تلك التفسيرات المحايدة أو المخالطة أو التي تلوك تحاول التوازن والتوفيق.

كانت الحالة الغربية مثلاً واضحاً لما صنعه ذلك القلق المستوطن الذي ترجم نفسه عبر الأسئلة الكبيرة التي تمُضُّ عنها الفكر الغربي: سؤال المنهج⁽²⁾ (الذي ولد عصر العقل و"العقلانية"⁽³⁾، وـ"سؤال التنوير"

(1) المقصود بـتَحَلُّ الأسئلة وـتَحْكِيقِها، في الدراسة، باستخدام المصادر "تَعَلُّ" (اللازم من الخمسي تَعَلَّ) وـ"تَعَيَّلُ" (المتعدي من الرباعي المضعف فَعَلَ)، هو: ديمومة تَوْلِيدُ الأسئلة وـتَنْوِيرُها في سبرورة واستمرارية؛ في دلالة التَّحُول مع "التَّحَلُّ"؛ دلالة التَّحُول مع "التَّحْكِيق".

(2) المقصود بـسؤال المنهج، في الدراسة، تموضع المنهج في دائرة التفكير، وتحوله إلى أداة للمساءلة والوصول إلى الحقيقة. وقد أُسس سؤال المنهج في أوروبا في اتجاهين متوازيين ومختلفين: اتجاه أنسسه فرنسيس بيكون (المدرسة الإنكليزية) يبدأ من الخارج التجريبي صوب الداخل والأفكار، واتجاه أنسسه ديكارت (المدرسة الفرنسية) يبدأ من الداخل والأفكار صوب الواقع الخارجي.

(3) تأتي العقلانية Rationalism بمعانٍ متعددة كما في موسوعة لالاند الفلسفية. وهي في هذه الدراسة تقترب من المعاني (ب) (و) (ج) (و) (د) التي يقدمها لالاند، وهي على النحو الآتي: المعنى (ب) "مذهب يرى أن كل معرفة يقينية تصدر عن مبادئ لا تقبل الدحض، قبلية، بينة، تكون حصيلتها الالازمة، ولا يمكن للحواس أن تقدم عنها سوى نظرية ملتبسة وظريفة، نظرية عابرة إلى الحقيقة (ديكارت، سينيوزا، هيغل)". المعنى (ج): "منظومة أساس كلية ومبادئ ضرورية تنظم المعطيات التجريبية (كانط)"، المعنى (د): "من زاوية المنحى العقلي: إيمان بالعقل، في البيئة والبرهان، اعتقاد بفعالية النور الطبيعي، بهذا المعنى يتعارض مع اللاعقلانية، بكل صورها (صوفية، باطنية، فلسفة الشعور، سلفية) [...]" ويعود مصطلح عقلانية، أو عقلاني، بالمعنى (ب)، إلى القرن السابع عشر". يُنظر: أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، ترجمة خليل أحمد خليل، ج 3 (بيروت/باريس: منشورات عويدات، 2001)، ص 1173-1172.

الذي توج "فلسفة الأنوار"⁽⁴⁾ وهي الأرضية لتفكير النكدي وأوجد الحداثة⁽⁵⁾، وسؤال الجدوى⁽⁶⁾ الذي خلق العبث وما بعد الحداثة⁽⁷⁾. كما كانت مثلاً آخر، جديراً بالتأمل، لتلذسي الأسئلة وقلق النكوص مع فلسفة ما بعد الحداثة التي ذهبت تقوض اليقين، وتفكك المركز، وتشطّي البنية، وتجابه العقل، وتنقد الحداثة.

أولاً: عصر العقل وسؤال المنهج

عبر سؤال المنهج، كان عصر العقل في الفلسفة الحديثة قد تأسس مع عقلانية رينيه ديكارت Baruch Spinoza (1650–1632) René Descartes (1677–1632)، ثم مع أفكار باروخ سبينوزا Gottfried Wilhelm Leibniz (1679–1588) Thomas Hobbes (1646–1716)، وغيرهم، على مبادئ الوعي بالذات والفلسفة الذاتية. وشكّل سؤال المنهج، منذ فرانسيس بيكون في كتابه *الأورغانون الجديد: إرشادات صادقة في تفسير الطبيعة* (The Novum Organum: Sive Indicia Vera de Interpretatione Naturae)⁽⁸⁾

(4) سؤال التنوير هو خلاصة ما قدمته فلسفة الأنوار متوجاً بأسئلة إيمانويل كانت المشهورة التي سترد في الدراسة. وفلسفة الأنوار، حركة فلسفية في القرن الثامن عشر، متميزة بحركة التقدّم، وبتحدي التقليد والسلطة، وبالإيمان بالعقل وبالآثار التهذيبية، وبالدعوة إلى التفكير وإلى الحكم ذاتياً على الأمور." يُنظر: لالاند، ج 2، ص 759.

(5) أبرز معاني الحداثة، وفقاً لموسوعة روتيلاح للفلسفة، الاستثناء من فرضية وجود واقع خارجي متamasك يمكن الوصول إليه تجريبياً. والرفض الوعي للحثيث للتوجه المكاني والزماني الذي كان الفن والأدب يقدمانه منذ عصر النهضة، إضافة إلى تحول الاهتمام الفني من الموضوعات إلى تمثيلاتها، ينظر:

Edward Craig, *Routledge Encyclopedia of Philosophy* (New York/ London: The Softback Preview Publisher, 1998), pp. 5571–5572.

أما في الفكر الأدبي، فالحداثة، زميّاً، جاءت تالية للحداثة في الفكر الفلسفى. ينظر:

Chris Baldrick, *The Concise Dictionary of Literary Terms* (Oxford: Oxford University Press, 1996), p. 140.

(6) يقصد سؤال الجدوى والقيمة في الدراسة المسائلات التي وجهها نيتش، على وجه التحديد، في فلسنته الناقلة للتنوير والعقلانية والأخلاق والمُثل، المؤسسة لشكية النظرة إلى القيمة، في سبيل إرباك المسلمات السائدة وما يعتقد أنها حقائق، وفي سبيل تقويض مثالية الأخلاق. ويشكل آخر تقويض السؤال النقدي الكانتي، القائم على المنطق العقلاني؛ ففي رأي نيتش، "يدو لنا العالم منطقياً، لأننا نحن من منطقنا أولاً." ينظر: فريديريك نيتش، إرادة القوة: محاولة لقلب كل القيم، ترجمة محمد الناجي (الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، 2011)؛ وتنظر عبارته السابقة، في: المرجع نفسه، ص 214.

(7) ما بعد الحداثة بحسب موسوعة ستانفورد للفلسفة: "مجموعة من الممارسات النقدية والاستراتيجية والخطابية التي تستخدم مفاهيم مثل الاختلاف والتكرار والواقعية الفائقة؛ لزعزعة مفاهيم أخرى مثل الوجود والهوية والتقدم التاريخي واليقين المعرفي ووحدة المعنى." ينظر موقع الموسوعة الإلكتروني:

"Postmodernism," *Stanford Encyclopedia of Philosophy*, 30/9/2005, accessed on 17/3/2022, at: <https://stanford.io/34wots6>

(8) مثل كتاب *الأورغانون الجديد* فاتحةً جديدة في المنهج وفي طرائق التفكير والنظر، بقسميه المركزيين اللذين تناولهما الكتاب: مواطن الزلل أو الأوهام الأربع في القسم الأول من الكتاب، وقواعد التجريب في القسم الثاني منه، وإذا ما أحذنا أهمية الكتاب في سياقه التاريخي، وإن كان الزمن قد تجاوز القسم الثاني، فإن القسم الأول ما يزال شاهداً على إشكالات التفكير حتى يومنا هذا. لقد كانت الأوهام الأربع التي تناولتها ي يكون فاتحةً جديدةً في تخلص العقل الغربي من إشكالات ما سماها ي يكون نفسه "التصورات الرائفة التي استحوذت على الذهن البشري"، الأوهام الأربع التي رمز لها بـ: أوهام القبيلة Idols of the tribe، وأوهام الكهف Idols of the cave، وأوهام السوق Idols of the Market Place، وأوهام المسرح Idols of the theater. ينظر: فرانسيس بيكون، *الأورGANون* الجديد: إرشادات صادقة في تفسير الطبيعة، ترجمة عادل مصطفى (القاهرة: رؤية للنشر والتوزيع، 2013)، ص 31–28.

وريبيه ديكارت في كتابه مقالة الطريقة لحسن قيادة العقل والبحث عن الحقيقة في العلوم *Discours de la Méthode Pour bien conduire sa raison, et chercher la vérité dans les sciences* (1637)⁽⁹⁾، محور ارتكاز الأسئلة التي ولدت عصر العقل، وتمثيلاته المتعددة في الواقع الأوروبي، وتمحضت تلك الأسئلة عن واقع جديد أضحت العقلانية سماته الأساسية، العقلانية التي تحولت بفعل سؤال المنهج إلى "أداة إجرائية تعتمد على العلوم الرياضية لتأسيس المعرفة الفلسفية بالعالم"⁽¹⁰⁾.

كان عصر العقل ردة فعل طبيعية على الرؤية اللاهوتية والتفسيرات الشيولوجية المصادمة لمنطق الكشف العلمي ومنطق الفكر الفلسفي ومنطلقات العقل الجمعي، وكانت قد بدأت تتشكل في أوروبا منذ القرن السادس عشر الميلادي⁽¹¹⁾. وشكّلت العقلانية، أيضاً، بدليلاً من الرؤية اللاهوتية المتعالية للعالم؛ تلك التي كانت تقارب واقع الكشف العلمي ومستجدات الفكر الحديث بمزيد من الإيغال في التعمّل والمواجهة، وبمزيد من الإصرار على التمسك بالأفكار القديمة. ومن البداية أن تكون العقلانية (ذلك المفهوم المكافئ) البديل الأكثر تناصاً لواقع كالواقع الأوروبي في تلك المرحلة، وهو ما يعكس واقع الحال، من التصادم بين التفسيرات القادمة من واقع الثقافة التصالحية الماضوية، بكل إرثها غير الخاضع للفحص والتمحيص والنقد والمنطق العقلاني، ومنطق الحياة المجتمعية الجديدة الذي بدأ الأوروبيون يتلمسونه في واقع حياتهم ويعايشونه في أزمنة التأسيس. يضاف إلى ذلك أنه من البداية أن يكون عصر العقل نتاجاً واقعياً لسؤال المنهج الذي كان قد ترسخ في الحياة العملية في شكل مادي ملموس.

كان المنهج قد تأسس في البنية الذهنية الأوروبية بدءاً بالمنهج التجريبي عند بيكون، والمنهج العقلي عند ديكارت، ثم المنهج النقيدي عند إيمانويل كانت Immanuel Kant (1724-1804)، والمنهج الجدلية عند فريدريش هيغل Friedrich Hegel (1770-1831). إلا أن العقلانية، كما أسسها ديكارت بدءاً بكتابه مقالة الطريقة، بذلت كلما أوغلت الأزمة في التقدم أو غلت هي في المفارقة بين الرؤية المتعالية للعالم والرؤية التي تؤسس لمنهجية العقل العملي الذي يستبطن الأفكار والمقولات من واقع ما يمكنه إدراكه وتفسيره، وللحواس فحصه واختباره؛ تلك الأزمة التي تمثلت بالعقلانية، والتنوير، والحداثة، وصولاً، في نهاية المطاف، إلى ما بعد الحداثة التي أنكرت الرؤيتين معًا: الرؤية المتعالية المستندة إلى مركز العقل الكلّي المتتجاوز والمفارق، والرؤية المتعالية المستندة إلى مركز العقل

(9) افتتح ديكارت كتابه بمقولته ذاتعة الصيت: "العقل هو أعدل الأشياء توزعاً بين الناس"، في فاتحة جديدة تؤسس إمكان النظر بمغزل عن السّياغات والأطر، وانطلق من مبدأ "الكوجيتو" في إثبات وجود الآنا من حيث هي كيان مفترض يُصدر الفعل ويصدر الوعي، بعبارة المشهورة: "أنا أفك إذن أنا موجود"، في تأسيس لإعادة المعرفة إلى الذات بوصفها من يتجهها، بعد إخضاعها للشك الذي يسائلها، ومن ثم يمنحها درجتها في اليقين. تنظر العبارة الأولى في: رينيه ديكارت، مقالة الطريقة لحسن قيادة العقل والبحث عن الحقيقة في العلوم، ترجمة جميل صليبا (الجزائر: موفر للنشر، 2007)، ص 3. وتنظر العبارة الثانية في: المرجع نفسه، ص 44.

(10) عز العرب لحكيم بناني، "المعرفة، نحو عقلانيات إجرائية"، *عالم الفكر*، مج 41، العدد 154 (تشرين الأول/ أكتوبر - كانون الأول/ ديسمبر 2012)، ص 58.

(11) الإشارة هنا إلى ما بعد الثورة البروتستانتية التي أسست الفردية في مقابل الجماعي وقوضت عرش البطيريكية الأبوية، ومرور ما يقارب من قرن من الزمان على اختراع الآلة الطابعة، والتأسيس للمعرفة التي تتبع من الإنسان نفسه.

الإنساني المحايث (على اعتبار أن "التنوير الغربي لم يُحدث تنويرًا كاملاً، إنما نقل سلطة الامتناхи من حامل إلهي مفارق، إلى حامل إنساني محايث").⁽¹²⁾

وقد مثل عصر العقل والعقلانية بذلك محاولة مبكرة لمَوْضِعَةِ الظواهر الإنسانية في النطاق البشري، ونقلها من الرؤية اللاهوتية والتفسير الشيولوجي إلى الإطار الإنساني، كما أنها اتخذت من إعادة إنتاج النظام الاجتماعي وسيلة لها في التأسيس للعقلنة⁽¹³⁾، وبذا العقل كأنه "هو الحق الخالد، وهو الماهية ذات القوة الخالدة"⁽¹⁴⁾، وأنه يسيطر على العالم، وأن تاريخ العالم وبالتالي يتمثل أمامنا بوصفه مساراً عقلياً⁽¹⁵⁾. وما إن انقضى القرن الثامن عشر ولحقت به أفكار هيغل حتى بدأت العقلانية (وسُؤلَّها سُؤالُ المنهج) في الإيغال بشكل حاد نحو العقلانية الأداتية Instrumental Rationality، الرافضة لكل تفسير لا يسنده واقع مادي محسوس؛ إذ ما إن جاء أوغست كونت Comte (1798-1857) (بفلسفته الوضعية)، وشارلز داروين Charles Darwin (1809-1882) (بنظرية عن التطور)، وكarl ماركس Karl Marx (1818-1883) (بفلسفته المادية)، وفريدریش نیتشه Friedrich Nietzsche (1844-1900) (بمقارنته في *جينالوجيا الأخلاق* (On the Genealogy of Morality)، وإمیل دورکایم Emile Durkheim (1858-1917) (بتأسيسه قواعد المنهج في علم الاجتماع Les Règles)، وSigмund Freud (1856-1939) (بتغليه سلطة اللاوعي على السلوك الإنساني)؛ حتى انتقلت الفلسفة من الفلسفة الذاتية المثالية Subjective idealism إلى الفلسفة الموضوعية المادية، وأخذ الوعي القائم على أساس العقلانية الديكارتية في التقهقر والتراجع، وتوحشت العقلانية إزاء الذاكرة والزمن⁽¹⁶⁾.

(12) العبارة لمطاع صFDI من مقدمة كتاب الكلمات والأشياء لميشيل فوكو، ب النظر: ميشيل فوكو، الكلمات والأشياء، ترجمة مطاع صFDI [وآخرون]، ط 2 (بيروت: دار الفارابي، 2013)، ص 8. وأصل جدل الفكر لسبينوزا في كتابه *الإтика* (Ethica 1677)، ينظر: الحسان سليماني، "جدلية التعالي والمحايثة في الفلسفة الحديثة: نقد سبينوزا للأصول الأرسطية والأسس الديكارتية للتعالي الإلهي"، *بيان*، العدد 25 (صيف 2018) والإشارة هنا إلى المرحلة الوسيطة التي استبعد فيها سبينوزا "سلمة المتعالي"، وذهب إلى أن الإله علة محايثة، وهو ما أسهم في إيجاد نظرة جديدة للوجود (في الحالة الغربية)، وتصور مختلف للعلاقة الناظمة بين المطلق والإنسان (بازاحة التمثيلات الوسيطة، وبالمحايثة بدلاً من التعالي)، ينظر كذلك: باروخ سبينوزا، *علم الأخلاق*، ترجمة جلال الدين سعيد (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2009)، ص 54-55.

(13) استُخدم فعل "العقلنة" في الدراسة في سياق الدلالة على الفعل القصدي من إسقاط العقلانية في أشكال إجرائية مجزأة في أنماط الحياة الإنسانية. يفرق إدغار موران بين: العقل كأداة للمعرفة، والعقلانية كمذهب، والعقلنة كفعل في النمط الحياني، والتبرير العقلاني كمبدأ يستند إليه في تبرير الفعل، ينظر: إدغار موران، *الفكر والمستقبل: مدخل إلى الفكر المركب*، ترجمة أحمد القصوار ومنير الحجوجي (الدار البيضاء: دار تويق للنشر، 2004).

(14) فریدریک هیجل، *العقل في التاريخ*، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، ج 1، ط 3 (بيروت: دار التنوير، 2007)، ص 76.

(15) المرجع نفسه، ص 78.

(16) تنظر عبارة هربارت ماركوز: "إذا كانت العقلانية التي لا تنتي تتقدم في المجتمع الصناعي المتقدم تميل إلى تصفية عنصري الزمن والذاكرة بوصفهما مخلفات لعقلانية، فإنها تميل في الوقت نفسه إلى تصفية العقلانية التي تشتمل عليها هذه المخلفات اللاعقلانية"، ينظر: هربارت ماركوز، *الإنسان ذو بعد الواحد*، ترجمة جورج طرابيشي، ط 3 (بيروت: دار الأدب، 1988)، ص 137.

ثانيًا: الحداثة وسؤال التنوير

يطلق المؤرخون على القرن الثامن عشر تسمية "قرن الأنوار" أو "التنوير"⁽¹⁷⁾. وقد ثُوِّج هذا القرن بالثورة الفرنسية، وبفلسفة كانت، اللتين كانتا بوابة الدخول إلى مرحلة الحداثة. تجاوز قرن الأنوار العقلانية وسؤال المنهج، إلى تأسيس التزعة الإنسانية وسؤال التنوير. لقد استفاقت المجتمعات الغربية على واقع في حاجة إلى الثورة والتغيير، فكانت الثورة الفرنسية، وكان أن فُتح الباب على مصراعيه لحركة الحداثة لتشكيل المجتمع الحداثي في القرن التاسع عشر، ولميلاد المجتمع المدني وهيمنة الثقافة المدنية وأشكالها الرمزية التي تعبر عنها: الدولة الحديثة، والقانون، والنظام الديمقراطي، والفنون. وأصبح الفكر حداثياً بتبنيه موقف الأسئلة والافتراضات الخاصة للتحقق والاحتمالات الممكنة وإخضاعها للبحث المنهج، وبنائه عن اليقين المطلقاً والموقف النهائي والإجابات الجاهزة؛ ما أسهم في تقديم الحداثة بمعناها المعلن "بناء صورة عقلانية للعالم"⁽¹⁸⁾. كان الهدف هو التوصل إلى معايير موضوعية في المعالجة لاكتشاف الحقيقة كما هي، لا كما يجري تصويرها أو تصورها، وفقاً للمنهج العقلاني الذي يولد معياريه في التفسير والافتراض والتحقق والحكم من داخله.

شكلت أسئلة كانت المشهورة في كتابه *Nقد العقل الممحض* (1787) (*The Critique of Pure Reason*):
 ماذا يمكنني أن أعرف؟ ماذا عليَّ أن أفعل؟ ما المسموح لي بأن آمله؟ ما الإنسان؟⁽¹⁹⁾:

- ٠ تتوسعاً خاتماً لعصر الأنوار؛ تحولت معه العقلانية العلمية إلى العقلانية النقدية.
- ٠ بوابةً للعبور نحو الحداثة؛ تحولت معه امتيازات النبلاء وسيادة رجال الدين والإقطاع إلى تحقق الهوية الفردية لكل شخص في المجتمع.

٠ مفتاحاً معاييرًا في تاريخ الفكر؛ تحول معه النقد القائم على الحرية إلى موضوع مركزي للفلسفة، يوازن بين التزعة الوثيقية الدوغماوية *Le dogmatisme* والنزعة التجريبية الريبية *Le scepticisme*؛ لقد كانت الأسئلة محرضًا أساسياً يصنع الوعي الذي يرفض يقينيات الماضي.

عرف كانت التنوير بكونه وضعاً يتحرر فيه الإنسان من حالة القصور المتمثل بالعجز عن استخدام الفكر باستقلالية؛ وذلك في إجابته عن سؤال التنوير في مقالته المشهورة "إجابة عن سؤال: ما هو التنوير؟" ("Answering the Question: What Is Enlightenment?" 1784) (وهو تعريف بالسلب يشير إلى الجرأة في استخدام العقل والتفكير بحرية). يقول كانت: "التنوير هو تحرر الإنسان من حالة القصور. والقصور هو عدم القدرة على الاستفادة من الفكر دون توجيه الآخرين. إن هذا القصور لا يمكن سببه في نقص العزم والشجاعة للاستفادة من الفكر باستقلالية. تحلَّ

(17) ينظر: موريس كروزيه [وآخرون]، *تاريخ الحضارات العام*، ج 5 (القرن الثامن عشر)، ترجمة يوسف أسعد داغر وفريد داغر، ط 2 (بيروت/باريس: منشورات عويدات، 1987)، ص 7.

(18) لأن تورين، *نقد الحداثة*، ترجمة أنور مغيث (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 1997)، ص 52.

(19) عمانوئيل كانت، *نقد العقل الممحض*، ترجمة موسى وهبة (بيروت: مركز الإنماء القومي، 1990)، ص 385.

بالشجاعة لاستخدام عقلك! من هنا جاء شعار التنوير⁽²⁰⁾: وشرط كانت لتحقيق التنوير الحرية - كونها تمنح الإنسان عقله الناقد المسؤول، وتوصله إلى مرحلة الرشد - إذ يقول: "ومع ذلك، فليس مطلوباً لهذا التنوير شيء غير الحرية. الحرية غير المؤذنة التي يمكن تسميتها بشكل صحيح بالحرية، أي: استخدام عقل الفرد في جميع الأمور. لكنني الآن أسمع نداء من جميع الجهات: لا تناقض! فالضابط يقول: لا تناقض، نفذ فقط! والمسؤول المالي يقول: لا تناقض، ادفع فقط! والكافر يقول: لا تجادل، آمن فقط!"⁽²¹⁾. إن واقع الحداثة الذي تأسس على سؤال التنوير، ممثلاً بحرية التفكير المؤسس على النقد وقيادة الذات بالخروج من عباءة الآخرين، كان ما يزال بعيد المنال؛ فعلى الرغم من أن حركة الأنوار على امتداد القرن الثامن عشر كانت تؤسس المجتمع الحديث، فإن سؤال التنوير المؤسس على النقد الحر لم يكن قد تجذر في الواقع، ففي رأي كانت: "إذا سئلنا عمّا إذا كنا نعيش في عصر التنوير، فالجواب هو: لا، لكننا نعيش في عصر يستثير؛ مما يزال ينقصنا كثيراً من الأمور لكي يكون الناس في حالة تمكنهم بالفعل من الثقة والاستخدام الجيد للعقل، في أمور الدين دون توجيهه من الآخرين"⁽²²⁾. وهو ما أسهم كانت في إنجازه عبر مشروعه النقدي.

أكَدَ التنويرُ القيمَ المركزيةَ التي تمثلت، بناءً عليه، بمشروعِ الحداثة؛ الحرية، والتقدم، والديمقراطية، والعلمانية، والمساواة. إلا أن ما أحدهُ كانت، الذي توجَ مرحلةَ التنوير، هو أنه نقلَ التنوير من حالة العقلانية العلمية، التي كانت قد تأسست منذ يُكُونُ وديكارت بسبب سؤال المنهج، إلى حالة العقلانية النقدية التي توجَّها سؤالَ التنوير: تجاوز السهولة، وتأمل البديهيَات، وفحصَ المسلمات. وفي جانب آخر كانت الحداثة الجمالية تقدم معاييرَ الواقعِ الجماليِ السائدِ منذ شارل بودلير (1821-1867)، وكانت عبارته المشهورة في كتابه *رسام الحياة الحديثة* (*Le peintre de la vie Moderne*) (1863) حاسمة بين حالتين، وفاصلة بين زمانين⁽²³⁾.

وبسبب المعرفة الإمبريقية، وهي أحد أوجه العقلانية الإجرائية التي تحول معها العقل الأنواري إلى عقل أداتي "والتنوير إلى ميثولوجيا"⁽²⁴⁾، تحولت العقلانية والوعي الذاتي من بوابة الأسئلة والافتراضات الخاضعة للبحث على الدوام إلى مسطرة جاهزة للمعايرة، وإلى أداة من أدوات اليقين، ذلك الذي ثبِّت

(20) Immanuel Kant, *Toward Perpetual Peace and Other Writings on Politics, Peace, and History*, David L. Colclasure (trans.) (New Haven/ London: Yale University Press, 2006), p. 1.

(21) Ibid., p. 4.

(22) Ibid., p. 6.

(23) تنظر عبارته المشهورة في كتابه *رسام الحياة الحديثة*: "أعني بالحداثة الزائل، الهارب، العرضي، نصف الفن الذي نصفه الآخر هو الأبدى والثابت". يُنظر:

Charles Baudelaire, *The Painter of Modern Life and Other Essays*, Jonathan Mayne (trans.) (New York: Phaidon Press, 1965), p. 13.

(24) أصل العبارة لشيفور أوتونو (1969-1903) وماكس هوركمeyer (1895-1973) Theodor W. Adorno في كتابهما جدل التنوير (Dialectic of Enlightenment) : "الأنسٹروبر بالذات قد صارت تنويرًا، والتنوير قد يتحوّل إلى أسطورة"، ومفهوم العقل الأداتي مفهومٌ مركزيٌّ لدِيَّهما، وقد استخدمت مدرسة فرانكفورت هذا المفهوم استخداماً مكثفاً، يُنظر: شيفور أوتونو و ماكس هوركمeyer، جدل التنوير: شذرات فلسفية، ترجمة جورج كتورة (بيروت: دار الكتاب الجديد المتّحدة، 2006)، ص 19.

حركة العلم وفلسفة المعرفة تغيره على الدوام، ويثبت الواقع نسبته؛ "إن معيار العقلانية يتغير بتغير المعتقدات العلمية"⁽²⁵⁾.

وعبر العقلانية الأداتية، والفلسفية الوضعية، والتجريبية الصارمة، والدوغمائية القاطعة، أصبحت قيم التنوير، كما أصيّب سؤال التنوير، بالانتكاس والتراجع، وتوطّد المجتمع الإيكولوجي الانضباطي (بحسب ميشيل فوكو Michel Foucault 1926-1984)، واتّسم العلم في بعض مساراته بالشكلاطية، تلك التي لا تعترف بشيء لا يقبل القياس، "وانقسمت العقول بشأن ما إذا كان عليها أن تتشبث بمقاصد التنوير، مهما كان مكسوراً، أو ما إذا كان عليها أن تنفض يديها من مشروع الحداثة"⁽²⁶⁾.

ثالثاً: الريبيبة وسؤال القيمة والجذوبي (جذور ما بعد الحداثة)

كان العقل الأنواري قد ثبت في رؤيته كلية الوجود، بواسطة عقلنة التفكير وعقلنة الحياة وعقلنة التصور؛ عقلنة التفكير بانفاذ المنهجية الصارمة في النسق الرياضي والنسق الفلسفـي، وعقلنة التصور بتبثـيت الرؤية النسقية للوجود عبر تقرـيب المتجاوز المفارقـ من المحـايـث الإنسـاني⁽²⁷⁾، وعقلنة الحياة بخلق النظمـية الجـادة في كل مـسـارات الشـأن العـام.

وكانـت أسـئـلة العـقل الأنـوارـي (متـوجـاً بـسؤالـ التنـويرـ) قدـ أـنـتـجـتـ التـحـولـ؛ بدـءـاً بـمـأسـسـةـ الـدـوـلـةـ الضـابـطـةـ لإـيقـاعـ الـمـجـتمـعـ، وـمـرـورـاً بـتـشـرـيعـ الـقـوـانـينـ الضـابـطـةـ لـإـيقـاعـ الـحـيـاةـ، وـوـصـولاًـ إـلـىـ تـنـمـيـتـ الـبـشـرـ بـإـطـارـ التـصـورـ (الـبـرـدـائـيمـ)ـ الـجـدـيدـ:ـ "ـبـيـنـماـ كـانـ يـسـودـ فـكـرـ الـقـرـنـينـ السـابـعـ عـشـرـ وـالـثـامـنـ عـشـرـ الـمـواجهـةـ بـيـنـ الـذـاتـ وـالـعـقـلـ، وـبـيـنـ الـنـفـعـيـةـ وـالـحـقـ الطـبـيـعـيـ، كـانـ النـزـعـةـ الـتـارـيـخـيـةـ فـيـ الـقـرـنـ التـاسـعـ عـشـرـ تـذـيـبـ الـذـاتـ فـيـ الـعـقـلـ، وـالـحـرـيـةـ فـيـ الـضـرـورةـ، وـالـمـجـتمـعـ فـيـ الـدـوـلـةـ"⁽²⁸⁾.

وكانـتـ العـقلـانيةـ (ـوـمـنـ بـعـدـهاـ التـنـويرـ)ـ قدـ وـلـدتـ،ـ مـنـ بـيـنـ مـاـ وـلـدـتـ،ـ حـتـميةـ التـسـلـسلـ الـمـنـطـقـيـ وـحدـيـتـهـ فـيـ قـوـانـينـهاـ،ـ وـدـوـغـمـائـيـةـ التـصـورـ وـانـغـلـاقـهـ فـيـ أحـكـامـهاـ،ـ وـخـطـيـةـ التـفـكـيرـ وـنـسـقـيـتـهـ فـيـ تـفـسـيـرـاتـهاـ،ـ ثـمـ جـاءـ دـارـوـينـ وـمـارـكـسـ وـنـيـتـشـهـ وـفـروـيدـ فـبـذـرـتـ بـذـورـ التـفـكـيرـ الـرـئـيـسيـ وـالـشـكـوـيـ وـالـمـفارـقـ،ـ وـبـدـأـتـ الـأـسـئـلةـ دـورـةـ جـديـدةـ مـنـ التـحـولـ:

- تطورت فـكـرةـ الـحـتـميةـ إـلـىـ الـجـبـرـ،ـ فـتـحـولـ الـإـنـسـانـ إـلـىـ إـنـسـانـ مـسـيـرـ،ـ لـاـ مـخـيرـ:ـ مـسـيـرـ بـتـطـورـهـ الـمـيـكـانـيـكـيـ الـطـبـيـعـيـ الـذـيـ لـاـ يـدـأـ لـهـ فـيـهـ (ـوـفـقـ تـشـارـلـزـ دـارـوـينـ)،ـ وـمـسـيـرـ بـالـحـرـكـةـ الـمـادـيـةـ،ـ الـتـيـ هـوـ نـاتـجـ مـنـهـاـ،ـ فـيـ

(25) الفكرة لتوomas كون Thomas Kuhn (1922-1969) [وآخرون]، يُنظر: بـانـيـ، صـ73ـ.

(26) يورغن هابرمـاسـ،ـ "ـالـحـدـاثـةـ -ـ مـشـرـوعـ لـمـ يـكـتمـلـ"ـ،ـ تـرـجمـةـ فـتحـيـ الـمـسـكـينـيـ،ـ تـبـيـنـ،ـ العـدـدـ 1ـ (ـصـيفـ 2012ـ)،ـ صـ188ـ.

(27) "ـبـعـدـ تـعـرـفـ إـلـهـ بـكـلـيـةـ الـمـوـجـودـ تـوـصـلـ النـسـقـ الـهـيـغـلـيـ إـلـىـ اـعـتـارـ الـطـبـيـعـةـ هـيـ إـلـهـ مـنـبـسـطـاـ فـيـ الـفـضـاءـ الـمـكـانـيـ،ـ وـأـنـ الـتـارـيخـ هـوـ إـلـهـ مـنـبـسـطـاـ فـيـ الـفـضـاءـ الـزـمـانـيـ"ـ.ـ وـالـعـبـارـةـ لـرـوـجـيهـ غـارـوـديـ،ـ نقـلاـ عـنـ:ـ مـحـمـدـ الـأـمـيـنـ بـحـرـيـ،ـ الـبـنـيـوـةـ الـتـكـوـنـيـةـ (ـبـيـرـوـتـ:ـ مـنـشـورـاتـ ضـفـافـ،ـ 2015ـ)،ـ صـ23ـ.

(28) تـورـينـ،ـ صـ114ـ.

تموضعه (وفق كارل ماركس)، ومسير بمخزونه اللاواعي الذي يدير حركته وقراراته وردّات فعله (وفق فرويد).

• تغيرت النظرة إلى العلاقات بين البني المختلفة وترابتها السببي؛ فشاعت فكرة فاعلية البنية التحتية في البني الفوقية، وأن التحولات في البني الفوقية ما هي إلا ناتجٌ من التحولات في البنية التحتية، وأن الفكر مشروط بمصالح الطبقة الاجتماعية التي تتجه، وباتت تجد مكانها في البعدين الفلسفيين والحياتي.

• تغيرت النظرة إلى الفلسفة ووظيفتها؛ من المثالية إلى الواقعية، و"من تفسير العالم إلى تغييره"⁽²⁹⁾، وتغيرت كذلك طرائق التفكير والاستبصار؛ من التفكير الخطي والواحدي والتعاقبي إلى التفكير الشعبي والاحت�الي والتزامي، في انشقاقٍ غير تصالحيٍ يفارقُ نمطية التفسير، واحتمالية التأثير، وميكانيكية المعالجة، ما بعد نسبية ألبرت أينشتاين Albert Einstein (1879-1955)، ومبرهنة كورت كودل Kurt Gödel (1906-1978) في "عدم الاكتمال"⁽³⁰⁾.

إلا أن مجموعة من الرؤى الشيولوجية (اللاهوتية) والنزارات الأسطورية القديمة، تلك التي جاء التنوير لإزاحتها وعمل جاهداً على تجاوزها بالعقلانية والنسقية والنظمية (عقلانية التفكير، ونسقية التصور، ونظمية الحياة)، كانت تتماهي ضمن نطاق الرؤية الفلسفية الحديثة وما صدر عنها من رؤية للوجود:

• النزعة إلى الشعور بفوقية الأن، التي تخفي وراءها صورة البطولة الملحمية المغايرة؛ وهي ما ولد العنصرية في الرؤية إلى المختلف خارج النطاق الغربي.

• النزعة إلى وثنية القوة والتحكم والسيطرة، الناتجة من العقل الأدائي ومفهوم البقاء للأقوى الدارويني؛ وهي ما أنتج تشظي القيمة الإنسانية في إنسانها الغربي، وأنتج، من بين ما أنتج، الاستعمار والحروب وهلاك ملايين البشر.

• نزعة صنمية الإحساس بامتلاك الحقيقة في الواقع المادي؛ وهو ما أفضى إلى البارانويا Paranoia (جنون العظمة) في غرور المعرفة، ويقينية المنهج، واحتمالية العلم.

(29) وفقاً للعبارة المشهورة لماركس: ظلت الفلسفة تفسر العالم بطريق مختلفة، ولكن المهم هو تغييره.

(30) تشير مبرهنة "عدم الاكتمال" التي أثبتها كورت كودل إلى أن اليقين المطلق يظل، حتى في الرياضيات، قابلاً للاحتمال، وهو ما يشير إلى أن نظام المسلمين هو نظام غير كامل، وأن ثمة حداً لعرفتنا الرياضية.

• الإيغال في التزعة الفردية؛ وهي ما حول الإنسان من الخيرية الفطرية إلى الأنانية والتشيؤ⁽³¹⁾، ومن الحلم الإنساني إلى الوحشة والاغتراب، ومن الإلهام المتعالي إلى الأداتية والتفاهة. وإلى "خطاب تعلم فيه الحقيقة بوصفها سلاحاً من أجل انتصار منحاز"، كما عبر عن ذلك فوكو⁽³²⁾.

مثلت الطمأنينة التي كان المجتمع الغربي قد وصل إليها مع قيم الحداثة: العلم، والتقدم، والحرية، والعقل، والحقيقة، يقينيةً جاهزةً جديدةً، استكان معها سؤال التنوير ومشروع الحداثة، على امتداد القرن التاسع عشر، إلى حتمياتها التقديمية. وبسبب القوة العلمية والاقتصادية والعسكرية التي حققت الانتصار والازدهار، وبسبب الحراك النبدي الذي أشاعتته أدوات الطبقة الوسطى: الصحفية، والمسرح، والجامعة ... إلخ، كانت اليقينية الجاهزة والإيمان بحتمية التقدم تتعاظم، وتحول التنوير إلى سلطة معيارية شمولية تفتقد إلى تكويناته الأولى التي أقيمت على مبادئ إنسانية. وفوجئ إنسان ما بعد التنوير والحداثة بما آلت إليه حاله في النصف الأول من القرن العشرين؛ الذي مثلت فيه التزعة النازية حتمية التنوير ويقينيته⁽³³⁾. وفي الوقت نفسه كانت النزعة الرئية تغرس بذورها شيئاً فشيئاً بسبب أساتذة الشك الرئيين، الذين سببوا الاضطراب لتلك الأسئلة الوثيقية، وأحلوا محلها اللايقين. لقد كانت الطمأنينة تتأهب للرحيل، وقيم التنوير والحداثة تواجه مآلاتها.

شكلت المساءلات التي وجهها نيتشه للتنوير، والعقلانية، والأخلاق، والمُثل، طابعاً حاداً وشكلاً من أشكال العدمة الصاحبة في إطار النقد الساخر الذي لا يرى في القيمة الإنسانية أي جدوى؛ ومعه بدأت الضربات القاسية لمركزية العقل والمفاهيم المرتبطة به، وبه تأسست ميوعة النظرية إلى القيمة ونسبيتها وهلامية تشكلها. فبحسب رأي نيتشه، "يبدو لنا العالم منطقياً لأننا نحن من منطبقناه أولاً"⁽³⁴⁾. وعبر الجنينالوجيا (وهي المقاربة التي توسلها في المعالجة)، بحث نيتشه عن الأصول الأولى في تشكيل الحدث، ليؤكد أن كل أصل يدعى أنه أصل ليس إلا أثراً، وأن أصول الأشياء ليست أكثر من وهم اصطمعناه. فليس ثمة شيء من الحقيقة وراء الأشياء، غير كونها بلا حقيقة أو جوهر، ومهمة الجنينالوجيا حينذاك ليست سوى البحث في التفاوتات ورصد التشتت؛ لا بهدف التأسيس لمركزية ثابتة، وإنما لمزيد من إرباك المسلمين وما يعتقد أنها حقائق، في سبيل الهدم وتقويض الأخلاق ومثاليتها، وبشكل آخر تقويض السؤال النبدي الكانطي، وتخليق عبئية السؤال. لقد كان السؤال لدى نيتشه معنياً بالكيفية التي يعيش فيها وفقاً للغرائز، لا الكيفية التي يختبر بها

(31) التشيؤ Reification: مصطلح أنشأه كارل ماركس، ويعني "السيطرة التي تتخذ فيها ظواهر متعددة اجتماعياً خاصيات ثابتة شيئاً كما لو أنها جزء من الطبيعة"، يُنظر: تيري إيلغلوتون، معنى الحياة، ترجمة عهد علي ديب (دمشق: دار الفرقان للطباعة والنشر، [د. ت.].)، ص 19؛ وهو لدى أدورنو وهوركهايم: "مرحلة يتحول فيها الفكر إلى سلعة، ولا تكون اللغة آئذ سوى وسيلة لتسويق هذه السلعة". ينظر: أدورنو وهوركهايم، ص 14.

(32) ميشيل فوكو، ي Cobb الدفاع عن المجتمع: دروس أُلقيت في "الكوليج دي فرانس" 1976، ترجمة الزواوي بغوره (بيروت: دار الطليعة، 2003)، ص 257.

(33) ينظر قول فوكو: "إن النازية هي قبل كل شيء شكل تطور السلطة التي تم إرساءها منذ القرن الثامن عشر. فليس هناك دولة انضباطية أكثر من النظام النازي". المرجع نفسه، ص 249.

(34) نيتشه، ص 214.

العالم، و"لم يعد السؤال لدى نيشه هو كيف أعرف؟ ولكنه السؤال الإشكالي الجديد كيف يمكنني أن أحيا"⁽³⁵⁾.

رابعاً: من أسئلة الحداثة إلى مساعلات ما بعد الحداثة (من الشك إلى الاليقين)

شكلت أسئلة الحداثة، على مستوى الإنسان والفكر والعالم، حتمية التقدم ونقطة العبور الرئيسة نحو تجذير الوعي المعقلن والمنهجية العلمية، عبر الإيمان بالقدرة الذاتية للإنسان في تفسير ما حوله، من خلال فعاليته في استخدام قدراته العقلية وأدواته التجريبية، بعيداً عن أي مؤثر خارجي متعال أو لا يمكن التدليل عليه، مع إعلاء قيمة الواجب وتقديسه ومحايشه.

مثّل التعليم في المدرسة، والرسملة في السوق، والإعلام عبر الصحف، في الوسط الغربي إبان الثورة الصناعية، وسائل ومرتكزات أساسية لتنميـط الفرد، وإحكام الإطار، والسيطرة على الفكر. غير أن تلك الديموقراطية في التعليم (مثـلـماً أـسـهـمـتـ فيـ نـقـلـ الإـنـسـانـ منـ الفـهـمـ الـبـسيـطـ إـلـىـ الـفـهـمـ الـمـرـكـبـ، وـمـنـ مـحـدـودـيـةـ التـصـوـرـ إـلـىـ فـهـمـ الـعـالـمـ، وـمـنـ كـفـاـيـةـ الـمـوـارـدـ إـلـىـ كـفـاءـةـ الـإـتـاجـ) أـسـهـمـتـ كذلكـ فيـ تـنـمـيـطـ مـثـاـتـ الـمـلـاـيـنـ مـنـ الـبـشـرـ، وـصـنـاعـةـ النـمـاذـجـ الـمـكـرـرـةـ، تـلـكـ الـتـيـ تـأـلـفـ الـاعـتـيـادـ، وـتـهـابـ الـاـشـقـاقـ مـنـ الـتـسـلـسـلـ، وـتـخـشـىـ سـكـرـةـ الدـوـارـ، إـذـاـ هـيـ أـفـلـتـ مـنـ النـسـقـ؛ فـتـمـتـ قـوـلـةـ الـإـنـسـانـ الـحـدـيـثـ وـنـمـذـجـتـهـ؛ وـهـوـ مـاـ زـادـ فـيـ اـغـرـابـهـ وـتـقـيـيدـ حـرـيـتـهـ وـخـيـارـاتـهـ، عـلـىـ الرـغـمـ مـنـ شـكـلـانـيـةـ الـتـحـرـرـ الـتـيـ يـحـيـاـهـاـ).

ومع أن المدارس الفكرية والنقدية كانت منفتحة على التعدد والتنوع، فإن الإطار كان على نحو شديد الإحكام؛ ما جعل المجتمعات الغربية مقودةً ضمن النمط العام لفكر الحداثة مستندةً إلى الطمأنينة التي اكتسبتها خلال القرن الثامن عشر، وتسرع وتيرة التقدم العلمي والتكنولوجي، والوفرة المادية التي مكنت الحداثة من الثقة بطريقتها وفعالية أفكارها. ومع تلك الطمأنينة الموهومة تدحرجت كرة الثلج نحو سقوط القيمة وانفلات المعنى، وفوجئ الإنسان الغربي بالتاليـعـ غيرـ المتـوقـعـ؛ فإـلـىـ جـانـبـ التـقـدـمـ التقـنـيـ، وـانـطـلـاقـ التـجـريـبـ فيـ فـضـاءـ الـعـلـومـ، وـتـطـورـ الـفـكـرـ، وـالـتـمـكـنـ منـ تـفـسـيرـ كـثـيرـ منـ الظـواـهـرـ فيـ إـطـارـ الـمـنـهـجـ الـتـجـريـبيـ، كـانـ تـشـيـءـ إـلـيـنـانـ وـالـفـكـرـ وـالـقـيـمةـ يـتـسـرـبـ إـلـىـ الـمـجـتمـعـ الغـرـبـيـ بـالتـواـزـيـ وـالتـزـامـنـ، مـنـ دـوـنـ أـنـ تـحـاـيـهـ مـحـاذـيرـ سـقـوطـ الـقـيـمةـ. إـذـاـ كـانـ الـاسـتـعـمـارـ وـالـحـربـانـ الـعـالـمـيـاتـ وـالـقـبـلـةـ الـنـوـوـيـةـ قدـ مـثـلـتـ كـلـهـاـ الـانـكـسـارـ الـحـادـ الـذـيـ صـدـمـ إـلـيـنـانـ الـغـرـبـيـ فـيـ حـدـاثـتـهـ وـعـلـانـيـتـهـ، فـإـنـ النـتـيـجـةـ الـطـبـيـعـيـةـ لـلـمـتـوـالـيـةـ الـحـلـزـونـيـةـ الـهـابـطـةـ، الـتـيـ جـسـدـتـ الـلـاتـحدـدـ وـالـلـارـؤـيـةـ، كـانـتـ قدـ قـرـبـتـ إـلـيـنـانـ الـغـرـبـيـ مـنـ إـلـيـحـسـاسـ بـالـعـبـثـ وـالـعـدـمـيـةـ الـتـيـ تـجـسـدـتـ فـيـ أـطـرـوـحـاتـ نـيـشـهـ فـيـ وـقـتـ باـكـرـ.

(35) عبد الرزاق بلقرنوز، المعرفة والارتياج: المسائلة الارتياجية لقيمة المعرفة عند نيشه وامتداداتها في الفكر الفلسفـيـ المـعـاصـرـ (بيـرـوـتـ: مـنـتـدىـ الـعـارـفـ، 2013ـ)، صـ 129ـ.

ويدعو مناهضة الدوغمائية القاطعة، ويدعو النسبية والهروب من "أسطورة الإطار"⁽³⁶⁾ أيضًا، وجد إنسان الحداثة نفسه قريباً من السيولة والعبث والعدمية، كما تشي بذلك أدبيات ما بعد الحداثة، وتقوضت معاني المركز؛ الأمر الذي أسمى في وقوع المجتمع الغربي وإنسانه في فوضى الدلالة واللاتحد والشعور المعمق باللاجذوى.

مثلت ظاهرة ما بعد الحداثة رؤية الالارؤية لدى مجتمع ما بعد الصناعة، الذي يشير إليه النقاد بوصفه ظاهرة مجتمع ما بعد الحرب العالمية الثانية، حين تعرى النموذج أمام نفسه وهو يفقد شيئاً فشيئاً القيمة والمعنى والمركز، ويرتد يوماً بعد يوم عن أسس الحداثة والمفاهيم المركزية التي قامت عليها. ووجد الإنسان نفسه أمام صدمات الواقع: هيمنة القوة على الرؤية (الاستعمار)، وهيمنة السلعة على القيمة (التشييء)، وهيمنة الكماليات على الإنتاج (الاستهلاك)، وهيمنة النسبية على التحدُّد (العدمية)، وهيمنة الصورة على الواقع (الزيف). ومن دون شك، أسمى التراجع الحاد في فاعلية أدوات الحداثة في حدوث كل ذلك: المدرسة في التكوين العلمي، والجامعة في التأسيس المنهجي، والإعلام في صدقية نقل الواقع، والكتاب في بيان الحقيقة.

وإذا كانت أسئلة الحداثة قد مثلت عصر اليقينيات الكبرى بالإنسان والعلم والمنهج والعقلانية والحقيقة وحتمية التقدم، وأسست مفهوم الواجب، فإن مساءلات ما بعد الحداثة قد مثلت العبث والإنكار والشك، وتحملت تبعه مواجهة أسس الحداثة المركزية:

• العقلانية (بدعوى ما أوصلت إليه الإنسان من الدوغمائية القاطعة و"أسطورة الإطار").

• العلمية (بسبب تحولها إلى أيديولوجيا وأداة للهيمنة والقمع).

• الاحتمالية (التي أنتجت منحى الثبات ونمطَّت الإنسان).

وصولاً إلى العدمية والسيولة والشك؛ العدمية التي تنفي الحقيقة، والسيولة التي تضفي النسبية على الأشياء وال العلاقات، والشك الذي يقوض المركز الثابت وكل اليقينيات، عبرَ طرح ما بعد الحداثة عن حالة إخفاق العالم في تفسير وجعه الأنطولوجي وأزماته المتلاحقة وبعده عن القيمة الإنسانية، ولكنه أوغل في الاتجاه الخاطئ، الذي لم يجد غيره، في المعالجة؛ فذهب ينكر الثبات واليقينيات، ويعارض الحتميات والإكراهات، ويُكفر بكل السرديةات الكبرى⁽³⁷⁾، وذهب يقوض كلَّ ما يمكن عدُّه أساساً

(36) جرت استعارة هذا المسكوك من عنوان كتاب مشهور للفيلسوف النمساوي الإنكليزي كارل بوبر Karl Popper (1902-1994)، وفرضية الكتاب الرئيسية أن الاعتقاد بالمسير التاريخي مجرد خرافه، وأنه لا يمكن التنبؤ بمجرى التاريخ الإنساني بطريقه من الطرق العلمية أو العقلية، والعبارة هنا لبور نفسه في بداية مقدمة الكتاب. يُنظر: كارل بوبر، *أسطورة الإطار: في دفاع عن العلم والعقلانية*، ترجمة يمني طريف الخولي، سلسلة عالم المعرفة 292 (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2001).

(37) السرديةات الكبرى Grand Narratives مصطلح تهمكي سَكَّه جان فرانسو ليوتارد Jean-François Lyotard (1924-1998)، في كتاب المشهور الوضع ما بعد الحداثي، لتأكيد سقوط "النظريَّة الكبُّرى" (الأساق الفكريَّة المغلقة)، وسقوط الأفكار الخطية المتسنة بالوثقى، كالقول بتقدمية حركة التاريخ والجنس البشري، والإنسانية، والعقلانية، والحرية بوصفها مقصدًا غائيًا، يُنظر:

Jean-François Lyotard, *The Postmodern Condition: A Report on Knowledge*, Geoff Bennington & Brian Massumi (trans.) (Manchester: Manchester University Press, 1984).

ومرجعيةً ومركزًا، في تعبير ناقد ساخط لا يحجم عن إثارة الأسئلة فقط، بل يدمر كل إجابة جاهزة، وكل يقين مستقر، وكل منهج عقلاني؛ وهو أمرٌ جعل من "ما بعد الحداثة" حركة احتجاجية مراهقة أكثر من كونها فعلاً تأسيسياً رياضياً. لقد أراد لها فلاسفتها أن تكون كذلك، واختاروا لها أن تتموضع في جانب الشك الدائم على حساب اليقين، وأن تنتج النقد المجرد من القيمة عوضاً عن استهداف الغاية الإنسانية منه، وأن تسقط في الوهم واللاوعي على حساب الوعي والعقلانية. ولعل "الواجب على الأرجح كان أن نتعلم من حالات التي صاحبت مشروع الحداثة، ومن أخطاء مشاريع التجاوز المغروبة، بدلاً من أن نتخلى عن الحداثة ومشروعها"⁽³⁸⁾، غير أن بروز مدرسة الاختلاف وفكرة ما بعد الحداثة والاتجاه التفكيري في الفلسفة والأدب قد زاد من عدد حفارى قبور الذات البشرية، وأوقع الإنسان في حيرة أكسيلولوجية رهيبة ضاعفت من الريبة واللاأدرية، وروجت لمفاهيم القطعية الكارثية والزعارات الارتکاسية والواقعية العدمية"⁽³⁹⁾.

يمكننا هنا استبصار فرضية التحولات السالبة بسبب تلاشي الأسئلة (إلى جانب التحولات الموجبة بسبب الأسئلة المؤسسة)، مع حالة الإحباط الشديدة واللجدوى التي وصل إليها إنسان ما بعد التنوير والحداثة في العالم الغربي، وعدم الاطمئنان إلى إجابات شافية عن أسئلة الواقع، عبر رحلة ذلك المشروع الحضاري بفضله المتعددة: الشك الموصى إلى اليقين من النهضة إلى عصر الأنوار، واليقين الجاهز الذي استبد بإنسان العقل الأداتي، واللايقين الذي عصف بإنسان ما بعد الحداثة.

إن تلاشي الأسئلة الكبرى، تلك التي تُعني بالأسئلة المعمقة عن العلة والجدوى والأثر وال العلاقات البينية، وتراجع مستوى تخليق الافتراضات والاحتمالات الناتج من تلك الأسئلة للوصول إلى رؤية أنطولوجية واضحة في الماهيات والمفاهيم وفي المدلولات وعلاقاتها الارتباطية بالأشياء والعالم، ليؤكد عمق الإشكال، ويشير، في غياب أبدال الروافع، إلى قلق النكوص، في مقابل هجمات فلسفات الضياع واللاعقلانية.

خاتمة

إجمالاً يمكننا رصد الاستنتاجات المركزية الآتية:

- يشير تبع الحالة الغربية من التنوير حتى ما بعد الحداثة، على مستوى الفكر الفلسفى، إلى تراجع ملحوظ في مؤشر تخليق الأسئلة الكبرى، من الأسئلة النقدية ذات المنحى الحتمي إلى الأسئلة الشكية والريبية المسبيّة للايقين، وإلى الارتحال من الحتمية والأنساق المركبة إلى الالاتحد والأنساق التجزئية، ومن العقلانية والوعي إلى السقوط في فخ اللاعقلانية واللاوعي، ومن الرؤية الناقدة إلى السقوط في فخ التحليل التشاوري من دون معالجة جذرية وإنتاج الحلول، ومن مجتمع الدولة

(38) هابرمان، ص 191.

(39) زهير الخويلدي، *تشريح العقل الغربي: مقابسات فلسفية في النظر والعمل* (الجزائر: ابن النديم للنشر والتوزيع؛ بيروت: دار الروافد الثقافية - ناشرون، 2013)، ص 45.

الإنسانية إلى الإيغال في تجذير "مجتمع القبيلة الأحادي الرؤوية"، وإلى الإيغال في "التشيئ" والسقوط في "الاغتراب".

- يحسب للعقلانية أنها هيأت الأرضية للتنوير بالمنهج والعلمية، ويحسب للتنوير أنه صنع إنسان الحداثة الناقد الذي تمثل ذلك المنهج وتلك العلمية، ويحسب للشكية والريبة بحث الإشكالات التي وقع فيها الفكر الفلسفية والفكر الأدبي، والانشقاق عن النمط بتفكير مخالف.
- ويحسب على العقلانية وقوعها في الحدية والاحتمالية، ويحسب على التنوير، وحداثته، أنه أوصل الإنسان إلى حافة "التشيئ" وأوقعه في "الاغتراب". كما يحسب على ما بعد الحداثة تغولها في الالاقيين.
- اتسمت الجهود النقدية، التي وجهت إلى التنوير والحداثة، بالتنظير وتأسيس المفاهيم في مُسألة العقل الأداتي، من دون التحول إلى مشروعات فاعلة على أرض الواقع، كما أنها اتسمت بالتشاؤم.
- أثبتت نظرية "التحدي والاستجابة"⁽⁴⁰⁾ قوة التنوير ومشروع الحداثة وصموده في مواجهة الريبة ونقد فلاسفة اليسار طوال العقود الشمانية الأولى من القرن العشرين. غير أن التحولات في الفكر الإنساني، نحو النسبية وعدم الاتكمال والالاقيين، قد أدى إلى تشظي الرؤية، وتغول التشيئ؛ ما دفع بطرح ما بعد الحداثة إلى الواجهة، لتقرر موت السردية الكبرى، وتقويض اليقينيات الحدية، وتفكك المركز والثابت.

References

المراجع

العربية

- أدورنو، ثيودور وماكس هوركهايم. *جدل التنوير: شذرات فلسفية*. ترجمة جورج كتورة. بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، 2006.
- إيغلتون، تيري. *معنى الحياة*. ترجمة عهد علي ديب. دمشق: دار الفرقان للطباعة والنشر، [د. ت].
- بحري، محمد الأمين. *البنيوية التكوينية*. بيروت: منشورات ضفاف، 2015.
- بلعقروز، عبد الرزاق. *المعرفة والارتباط: المساعدة الارتباطية لقيمة المعرفة عند نيشه وامتداداتها في الفكر الفلسفى المعاصر*. بيروت: منتدى المعارف، 2013.
- بناني، عز العرب لحكيم. "المعرفة، نحو عقلانيات إجرائية". *عالم الفكر*. مج 41، العدد 154 (تشرين الأول/أكتوبر - كانون الأول/ديسمبر 2012).

(40) نظرية مشهورة للمؤرخ البريطاني أرنولد توينبي Arnold J. Toynbee (1889-1975)، يفتقد فيها فرضية سقوط الأنماذج الغربية، التي بناها آثر هيرمان في كتابه المشهور فكرة الأضمحلال في التاريخ الغربي، بنظرية المعاكسة التي عرفت بنظرية "التحدي والاستجابة".

بوبر، كارل. **أسطورة الإطار**: في دفاع عن العلم والعقالنية. ترجمة يمني طريف الخولي. سلسلة عالم المعرفة 292. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2001.

بيكون، فرانسيس. **الأورجانون الجديد**: إرشادات صادقة في تفسير الطبيعة. ترجمة عادل مصطفى. القاهرة: رؤية للنشر والتوزيع، 2013.

تورين، لأن. **نقد الحداثة**. ترجمة أنور مغيث. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 1997.

الخويلدي، زهير. **تشريح العقل الغربي**: مقابسات فلسفية في النظر والعمل. الجزائر: ابن النديم للنشر والتوزيع؛ بيروت: دار الروايد الثقافية - ناشرون، 2013.

ديكارت، رنيه. **مقالة الطريقة لحسن قيادة العقل والبحث عن الحقيقة في العلوم**. ترجمة جميل صليبا. الجزائر: موفر للنشر، 2007.

سيينوزا، باروخ. **علم الأخلاق**. ترجمة جلال الدين سعيد. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2009.

سليماني، الحسان. "جدلية التعالي والمحايطة في الفلسفة الحديثة: نقد اسبينوزا للأصول الأُرسطية والأسس الديكارتية للتعالي الإلهي". **تبين**. العدد 25 (صيف 2018).

فوكو، ميشيل. **الكلمات والأشياء**. ترجمة مطاع صFDI [وآخرون]. ط. 2. بيروت: دار الفارابي، 2013.

_____. **يجب الدفاع عن المجتمع: دروس أُقيمت في "الكوليج دي فرنس" 1976**. ترجمة الزواوي بغورة. بيروت: دار الطليعة، 2003.

كروزيه، موريس [وآخرون]. **تاريخ الحضارات العام**. ج 5 (القرن الثامن عشر). ترجمة يوسف أسعد داغر وفريد داغر. ط. 2. بيروت/باريس: منشورات عويدات، 1987.

كنط، عمانوئيل. **نقد العقل الممحض**. ترجمة موسى وهبة. بيروت: مركز الإنماء القومي، 1990.

لالاند، أندريه. **موسوعة لالاند الفلسفية**. تعریب خليل أحمد خليل. بيروت/باريس: منشورات عويدات، 2001.

ماركوز، هربارت. **الإنسان ذو البعد الواحد**. ترجمة جورج طرابيشي. ط. 3. بيروت: دار الآداب، 1988.

موران، إدغار. **الفكر والمستقبل**: مدخل إلى الفكر المركب. ترجمة أحمد القصوار ومنير الحجوجي. الدار البيضاء: دار توبيقال للنشر، 2004.

نيتشه، فریدریک. **إرادة القوة**: محاولة لقلب كل القيم. ترجمة محمد الناجي. الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، 2011.

هابرماس، يورغن. "الحداثة - مشروع لم يكتمل". ترجمة فتحي المسكيني. تبيّن. العدد 1 (صيف 2012).

هيجل، فريدرريك. *العقل في التاريخ*. ترجمة إمام عبد الفتاح إمام. ط 3. بيروت: دار التنوير، 2007.

الأجنبية

Baldick, Chris. *The Concise Dictionary of Literary Terms*. Oxford: Oxford University Press, 1996.

Baudelaire, Charles. *The Painter of Modern Life and Other Essays*. Jonathan Mayne (trans.). New York: Phaidon Press, 1965.

Craig, Edward. *Routledge Encyclopedia of Philosophy*. New York/ London: The Softback Preview Publisher, 1998.

Kant, Immanuel. *Toward Perpetual Peace and Other Writings on Politics, Peace, and History*. David L. Colclasure (trans.). New Haven/ London: Yale University Press, 2006.

Lyotard, Jean-François. *The Postmodern Condition: A Report on Knowledge*. Geoff Bennington & Brian Massumi (trans.). Manchester: Manchester University Press, 1984.